

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

[الممتحنة: 4]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِأَقْبَلِهَا:

لما تناولت الآيات السابقة حالَ مَنْ يوالي عدوَّ الله بما يَجُرُّ إلى مَضَارِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فكانت الآية بياناً تحذيرياً في أمر الولاء والبراء من الأعداء ناسب بعد ذلك ذكرُ عنوان الولاء والبراء في السُّلُوكِ الْإِيمَانِيِّ، وهو خبرُ سيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وهذا من تربية الحاضر بالماضي، والاعتبار بحال مَنْ ينتمي إليه النَّاسُ، فإِبْرَاهِيمُ ﷺ هو مَجْمَعُ الْخَيْرِ فِي التَّجَرُّدِ مِنَ الْكُفْرِ وَاعْتِنَاقِ التَّوْحِيدِ، فالآيةُ تمثِّلُ الانتقالَ مِنَ التَّنْظِيرِ بِالنَّهْيِ عَنِ مَوَالَاةِ الْأَعْدَاءِ إِلَى التَّطْبِيقِ فِي الْإِعْتِبَارِ بِالْخَلِيلِ ﷺ.

الانتقال من
الأمر النظري إلى
الأمر بالتأسي
بالسلوك
العملي

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أُسْوَةٌ﴾: يَدُورُ مَعْنَى الْأُسْوَةِ عَلَى الْمُدَاوَاةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنْ: أَسَوْتُ الْجُرْحَ: إِذَا دَاوَيْتُهُ، وَمِنْهُ الْأُسَى الْحَزَنُ، وَيُقَالُ: أَسَوْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ: إِذَا أَصْلَحْتَ بَيْنَهُمْ⁽¹⁾. ويقال: أَتَسَّى بِهِ؛ أَي: اقْتَدِ بِهِ. وَفُلَانٌ يَأْتَسِي بِفُلَانٍ؛ أَي: يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا رَضِيَهِ وَيَقْتَدِي بِهِ وَكَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسا).

في مِثْلِ حالِهِ⁽¹⁾. والأسوءُ بضمُّ الهمزة وكسرها تُطْلَقُ على الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً⁽²⁾، فالأسوءُ اسمٌ لكلِّ ما يُقْتَدَى به، ومن يُقْتَدَى به أسوءُ أيضاً⁽³⁾. يُقال: فلانٌ أسوءُ في هذا الأمر، فالأسوءُ القدوة⁽⁴⁾، وهي من النَّاسِ بمن هو في مقام الفضل والإحسان في الأمر الذي يُتَأَسَّى به فيه.

(2) ﴿بُرْءُؤًا﴾: يدلُّ البرُّ والبراء والتَّبرُّي على سلامة الحيِّ وخلوصه ممَّا يَكْتَنِفُهُ أو يَنْقُصُهُ، وأصلُّه من البرِّاة. وهي فُتْرَةُ الصَّائِدِ التي يَكْمُنُ فيها ليسلم ممَّا حوله⁽⁵⁾. وبرئٌ إذا تنزَّه وتباعد. ويُقال: هو بريءٌ من الدين أو العيب أو التُّهمة وكلِّ ما هو شرٌّ بمعنى الخُلوصِ والسَّلامة منها. ويدلُّ اللَّفْظُ على معنى القوَّة في المزايلة. ومنه مَطَرٌ ذو بُرايةٍ يَبْرِي الأرض ويَقْشَرُها. ودابةٌ ذاتُ بُرايةٍ؛ أي: ذاتُ قوَّة على السَّير⁽⁶⁾، ثمَّ عَبَّرَ بالبراءة عن التَّباعدِ من كلِّ ما هو شرٌّ، ومُزَايَلَتِهِ بِشِدَّةٍ وقوَّةٍ على سبيل السَّلامة منه وكُرهٍ مُجاوِزَتِهِ⁽⁷⁾. وبريءٌ مفرَّدٌ، وجمعه: بُرَاءٌ وبريئون⁽⁸⁾. ومعنى ﴿إِنَّا بُرْءُؤًا﴾: إِنَّا مُتَبَرِّئُونَ وَمُنْكَرُونَ لما تعملون.

(3) ﴿الْمَصِيرُ﴾: أصلُ الكلمة من صَيرَ، ويدورُ اللَّفْظُ على معنى الانتهاء إلى موضعٍ بعدَ التَّنقُّلِ والحركة، بحيث يكون فيه تحوُّلٌ من حالٍ إلى حالٍ يكون فيه المآلُ والمرجع⁽⁹⁾. والمَصِيرُ: المَوْضِعُ الَّذِي تَصِيرُ إليه المياهُ بعدَ تنقُّلِها، فلفظُ المَصِيرِ يأتي مصدرًا واسمَ مكانٍ؛ ويُقال: أين مَصِيرُكم؟ أي: أين مَنْزِلُكم؛ لأنَّ المنزلَ مكانُ رجوعِ القومِ في محاضرهم بعدَ تنقُّلِهم. وصيَّرَ الأمرُ: مُنْتَهَاهُ ومَصِيرُهُ وعاقِبَتُهُ وما يَصِيرُ إليه. و﴿الْمَصِيرُ﴾ في الآية بمعنى المَرْجِعِ⁽¹⁰⁾.

(1) الأزهرى، تهذيب اللغة: (أسا).

(2) الرَّاغِب، المفردات: (أسا).

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 408 / 21.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (أسا).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (برأ).

(6) الأزهرى، تهذيب اللغة: (برأ).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).

(8) الرَّاغِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).

(10) ابن منظور، لسان العرب: (صير).

✽ المعنى الإجمالي:

ذكرت الآية الكريمة مثال التأسّي العظيم في البراءة من أعداء الله تعالى؛ ليتأسّى المؤمنون بإبراهيم والذين آمنوا معه، حين قالوا لقومهم المشركين: إِنَّا نَتَّبِعُكُمْ، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله تعالى، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كُفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه المشرك: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ اللهُ؛ فإنه لا أسوة لكم في هذا القول، إذ لا ينبغي لأحد أن يستغفر للمشركين ولو كانوا ذوي قربي⁽¹⁾.

قصة إبراهيم
أنموذج التطبيق
العملي في الولاء
والبراءة

✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

علة فصل الآية عن السابق:

فُصِلَتْ جملة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ عما قبلها؛ لأنها تأكيد للكلام السابق، فهي تأكيد لمضمون جملة ﴿إِنْ يَنْقُضْكُمْ﴾، وجملة ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾، وذلك لأن الآية جاءت لبيان السبب بما دلت عليه، من أن من توجه إليهم التوبيخ خالفوا الأسوة الحسنة في عملهم بالإلقاء إلى عدو الله بالمودة؛ فتكون جملة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ مقوية لإثبات الخطأ المستوجب للتوبيخ⁽²⁾، فمقتضى الحق هو متابعة الأسوة الحسنة في أعمالها، لا مخالفتها في موالات أعداء الأمة، والنسج على خطأ محرّفي الملة.

موالات أعداء
الأمة المحمدية
مخالفة للملة
الإبراهيمية

دلالة استعمال حرف التحقيق:

أفاد حرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تأكيد كون إبراهيم ومن معه أسوة حسنة يقتدى بها دون تردد؛ بمعنى: أن هذه الخصلة حقيقة أن يقتدى بها.

الحث على
التأسي بسيدنا
إبراهيم من دون
تردد

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 318 / 23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 142 / 28.

غرض تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على المسند إليه:

مَزِيدُ الْعِتْنَاءِ
يُوجِبُ التَّزَامَ
الْأَمْرَ

أفاد تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿أُسْوَةٍ﴾ في قوله: ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ مزيدَ اعتناءٍ بكونِ هذه الأسوة لكم أيُّها المؤمنون؛ لمُناسبتها لسبب النُّزول؛ أي: فالزَّموها ولا تُخالفوها.

بلاغة استعمال مُفردة ﴿أُسْوَةٍ﴾:

أَعْظَمُ الْخِصَالِ
الَّتِي حَفِظَهَا
الْقُرْآنُ لِمَا
إِبْرَاهِيمَ بَرَأَتْهُ
مِنْ قَوْمِهِ

آثر النظم الكريم التعبير بمفردة ﴿أُسْوَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الحالة هي من حالات الفضل الإحسان، وأنَّ صاحبها يُتأسَّى به، فالأسوة هي الخصلة التي يُقتدى بها من فعلٍ أو قولٍ أو وصفٍ، وجاء ذكرُ الأسوة دون القدوة لبيان أنَّ المقصود بالدرجة الأولى هو الخصلة الحسنة، أمَّا القدوة فهي أعمُّ من ذلك؛ إذ تأتي في المنهج والسلوك العام.

فائدة تكبير لفظة ﴿أُسْوَةٍ﴾:

التَّعْظِيمُ
والتَّفْخِيمُ
لِفَخَامَةِ مَنْ
صَدَرَتْ عَنْهُ

جاءت لفظة ﴿أُسْوَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ منكرةً لإفادة التعظيم؛ بمعنى: أنَّها أسوة تستحقُّ الاقتداء بها؛ لعظمتها وفخامتها، باعتبار دلالتها على التوحيد النقي، وباعتبار مَنْ صَدَرَتْ عَنْهُ.

دلالة وصف ﴿أُسْوَةٍ﴾ بـ ﴿حَسَنَةٍ﴾:

تَأْكِيدُ حُسْنِ
الْأُسْوَةِ، وَأَنَّهَا
بِمَكَانٍ رَفِيعٍ
مَمْدُوحٍ

لما غلبَ على الأسوة أن تكون في الأمور الحسنة المرضية التي يحسنُ الاقتداء بها كان وصفُ الأسوة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تأكيداً لمدح هذه الأسوة؛ لأنَّ كونها حسنة قد عَلِمَ من السياق⁽¹⁾ ومن اللَّفْظِ ذاته، فكان في وصفها تأكيدٌ لتلك الصِّفة الغالبة عليها؛ فقد يتأسَّى المرءُ بما هو قبيحٌ، ظناً منه أنَّه حسن⁽²⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 143 / 28.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 898 / 14.

بلادة استعمال حرف الظرفية:

حرفُ الظرفية ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعَارًا لِلتَّعْبِيرِ عَنْ قُوَّةِ الْمَلَابَسَةِ؛ إِذْ جُعِلَ تَلْبُسُ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِكَوْنِهِمْ أُسْوَةً حَسَنَةً، بِمَنْزِلَةِ تَلْبُسِ الظَّرْفِ بِالْمَظْرُوفِ فِي شِدَّةِ التَّمَكُّنِ مِنَ الْوَصْفِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْمَعْنَى: قَدْ كَانَ لَكُمْ إِبْرَاهِيمُ وَالَّذِينَ مَعَهُ أُسْوَةً فِي حِينِ قَوْلِهِمْ لِقَوْمِهِمْ⁽¹⁾؛ بِمَعْنَى: أَنَّ فِيهِ خَصْلَةً حَسَنَةً ثَابِتَةً مَتَمَكِّنَةً مِنْهُ وَمِنَ الَّذِينَ مَعَهُ، وَأَنَّ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَى بِهَا وَتُتَّبَعَ، فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ الْخَصْلَةَ الْحَسَنَةَ الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَلَيْسَ الْكَلَامُ فِي أَنْ تَكُونَ ذَوَاتُهُمْ أُسْوَةً، بَلْ خَصْلَةُ تَبَرُّئِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ وَكَفَرِهِمْ بِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى التَّجْرِيدِ؛ أَي: جَرَدَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مَنْ يُؤْتَسَى بِهِ، وَهُمْ الْمُؤْتَسَى بِهِمْ⁽²⁾؛ أَي: فَأِبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؛ أَي: قُدْوَةٌ، وَهُوَ الْمُؤْتَسَى بِهِ؛ أَي: الْمُقْتَدَى بِهِ.

توجيه تخصيص إبراهيم بالذكر:

اخْتَارَ النَّظْمُ الْكَرِيمَ أُنْمُودَجَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي الْاِقْتِدَاءِ بِالْبِرَاءَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَإِبْدَاءِ الْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَكُونَ أُسْوَةً لِلْحَاضِرِ بِالْغَابِرِ، دُونَ بَقِيَّةِ الْمُرْسَلِينَ، وَهُمْ جَمِيعًا ﷺ نَمَازُجُ فِي الْبِرَاءَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مَثَلٌ فِي الْيَقِينِ بِاللَّهِ وَالْغَضَبِ بِهِ، عَرَفَ ذَلِكَ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ⁽³⁾.

غرض عطف المؤمنين من قوم إبراهيم على رسولهم:

عُطِفَ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ عَلَى ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لِيَتِمَّ التَّمَثِيلُ لِحَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ رَسُولِهِمْ ﷺ بِحَالِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ؛ أَي: أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ تَابِعِينَ لِهَدْيِ رَسُولِهِمْ ﷺ، كَمَا كَانَ الَّذِينَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ

بيان غمق البراءة
من الكافرين في
سلوك إبراهيم



براءة إبراهيم
من الكافرين
أسوة للحاضر
بالغابر

اكتمال النموذج
في براءة الرسول
وأتباعه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28 / 144.

(2) الطيبي، حاشية على الكشف: 15 / 356.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28 / 143.

ﷺ تابعين له في البراءة من الكافرين وإبدائهم العداوة والبغضاء لهم⁽¹⁾، فلم تكن البراءة صادرة عن إبراهيم ﷺ وحده، بل كان له أتباع في ذلك ممن آمن به وبعوته.

دلالة ذكر المعية وعدم التصريح بالإيمان:

لما كانت المعية تقتضي المتابعة، وكان إبراهيم ﷺ مشهوراً بالحنيفية وتوحيده لله تعالى أفاد الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أن المراد به الذين اتبعوه في إيمانه وتوحيده وهديده، ولذلك لم يقل: (والذين آمنوا معه)؛ لأن الكلام في الأسوة والافتداء؛ ليدل بلفظ المعية على أنهم اتبعوا هديده وخصاله الحسنة. والمراد بـ (الذين معه) أصحابه وأتباعه⁽²⁾.

توجيه التشابه اللفظي في التقديم والتأخير:

في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ٥١﴾ [الأحزاب: 21] قدّم قوله: ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ على ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وهنا في سورة الممتحنة قدّم قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ على ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾؛ فما سرُّ ذلك؟

والجواب: أن سرّ ذلك أن الكلام في سورة الأحزاب عن الإيمان برسول الله ﷺ وصدق وعده وكونه أسوة حسنة للمؤمنين، فناسب تقديم ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾؛ لأنه هو موضوع سياق الآيات؛ فذكر التأسّي برسول الله ﷺ باعتباره رسولا يقتدى به مطلقاً، لا باعتبار أن الاقتداء به خاص بموضوع معين.

أمّا في سورة الممتحنة فإنّ موضوع السياق هو نهّي المؤمنين عن

مُتَّبِعُو الرَّسُولِ
مُتَّصِفُونَ بِهِدْيِهِ
وِخْصَالِهِ

التَّاسِّي بِسَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ ﷺ
بِالْمُطْلَقِ،
وَبَسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ
بِمَوْضُوعِ
الْبَرَاءَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 143 / 28.

(2) الواحدي، الوجيز، ص: 1088.

موالاة أعداء الله، فذكرَ حالةَ تصلُّحٍ للتَّاسِي، فالكلامُ على التَّاسِي بِخَصْلَةٍ حَسَنَةٍ حَمِيدَةٍ، لا على التَّاسِي بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ باعتبارِهِ رسولاً. فأفاد تقديمُ نبيِّنا على ﴿أُسْوَةٍ حَسَنَةٍ﴾ أَنَّهُ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِالْإِطْلَاقِ، وأفاد تقديمُ الأُسْوَةِ على إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنَّ هذه الأُسْوَةَ مَقِيدَةٌ بِمَوْضُوعِ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، وهو مُطَرِّدٌ فِي كُلِّ مَلَّةٍ⁽¹⁾.

توجيهُ تَعْلُقِ الظَّرْفِ ﴿إِذْ﴾:

الظاهرُ أَنَّ ﴿إِذْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْأُسْوَةِ⁽²⁾؛ أَي: فِي إِبْرَاهِيمَ وَمِنْ مَعَهُ أُسْوَةٌ حِينَ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ ظَرْفٌ لـ ﴿لَكُمْ﴾؛ بِمَعْنَى: قَدْ كَانَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ كَائِنَةً لَكُمْ حِينَ قَالُوا، كَمَا ذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الظَّرْفَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي حِينَ قَوْلِهِمْ لِقَوْمِهِمُ الْكُفَّارَ: إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ، وَقَدْ كَانَ كُفَّارُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ أَكْثَرَ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَأَقْوَى، وَلَهُمْ فِيهِمْ أَرْحَامٌ وَقَرَابَاتٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُيَالُوا بِهِمْ⁽³⁾.

نكتة استعمالِ ظَرْفِ الزَّمانِ ﴿إِذْ﴾ دُونَ (حِينَ):

أَثَرَ النِّظْمِ الْكَرِيمِ اسْتِعْمَالَ ظَرْفِ الزَّمانِ ﴿إِذْ﴾ عَلَى غَيْرِهِ: لِاسْتِعْمَالِهِ فِي مَقَامِ التَّنْبِيهِ إِلَى زَمَانٍ وَقَعَ فِيهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ ﴿إِذْ﴾ مَثَلًا لِلذِّكْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْعِظَةِ⁽⁴⁾، وَلِلإِشَارَةِ إِلَى عِظَمِ هَذَا الْقَوْلِ، وَأَنَّهُ قَوْلٌ جَلِيلٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَيُلَمَّحُ فِي ﴿إِذْ﴾ مَعْنَى التَّعْلِيلِ⁽⁵⁾؛ لِيُفِيدَ الْكَلَامُ تَعْلِيلَ حَثِّ الْمُؤْمِنِينَ

الأقوالُ الصَّادِرَةُ
عَنْ أَصْحَابِهَا
تَرْجَمَةٌ
لِعَقَائِدِهِمْ
وَقِيَمِهِمْ

مَا بَعْدَ (إِذْ)
حَدَّثَ عَظِيمٌ
يَسْتَحِقُّ الْإِتْبَاءَ
وَالِاتِّفَاتِ، لَا
مَجَرَّدَ خَبَرٍ يُذَكِّرُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 295 / 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 144 / 28.

(3) القنوجي، فتح البيان: 77 / 14.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 143 / 28.

(5) ابن مالك، شرح التسهيل: 208 / 2.

على اتِّخَاذِ أُسْوَةٍ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ بِمَعْنَى:
أَنَّ سَبَبَ كَوْنِ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ هُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا
لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَّاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

دلالة استعمال مُفْرَدَةِ الْقَوْمِ:

كثرة الكافرين في
العدَّة والعَدَدِ لَا
تَمْنَعُ مِنَ الْبَرَاءَةِ
مِنْهُمْ

استعمل النَّظْمُ الكريم مفردة (قوم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا
لِقَوْمِهِمْ﴾؛ لِما يفيده لفظُ (القوم) من الإشارةِ إلى قَوَّتِهِمْ وشِدَّتِهِمْ
واجتماعِهِمْ، فهم يقومون على أمرٍ جامع، ففيه تنبيهٌ للمؤمنين بأنَّ
الَّذِينَ كانوا مع إبراهيم ﷺ من المؤمنين كانوا أَقَلَّ مِنْكُمْ وأَضْعَفَ،
وقد قالوا لقومِهِم الكفرةَ هذا القولَ، مع أنَّ فِيهِمْ أرحامًا لَهُمْ، وقد
كان قَوْمُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ عَدُوِّكُمْ وأَقْوَى، فاقتداءً الْمُؤْمِنِينَ الْحَاضِرِينَ
بِهِمْ أيسرُ مِنْ أَصْلِ فَعَلِ الَّذِينَ آمَنُوا مع إبراهيم ﷺ.

نكتة التعبير بمفردة البراءة:

البراءة لفظٌ
جامعٌ بين
المفارقة والتَّحَالِي
بالعافية

أثر النَّظْمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿بُرَّاءَةٌ﴾ للدلالة على تباعدِ
المؤمنين عن قومهم الكافرين، والبراءة تومئُ إلى الصَّحَّةِ والعافية
من المرض، وهي مأخوذةٌ مِنَ الْبُرِّءِ، فالَّذِي يَتَبَرَّأُ مِنْ غَيْرِهِ إِنَّمَا
يَتَبَرَّأُ مِمَّا فِيهِ مِنْ أَمْرٍ تُلْحِقُ الضَّرَّ والأذى، فكان هذا اللَّفْظُ
جامعًا بين البراءة مِنَ الْأَمْرِ الْقَلْبِيِّ والبراءةِ الْحَسِّيَّةِ بِمُفَارَقَةِ
الْمُتَبَرِّأِ مِنْهُ، فهي براءةٌ تَلْحَقُهَا الصَّحَّةُ والعافية في الدِّينِ والدُّنْيَا.

نكتة التعبير بقوله: ﴿بُرَّاءَةٌ﴾ بصيغة الجمع:

البراءة المُتَبَرِّئَةُ
هي القاطعة
لكلِّ مَوَدَّةٍ

جاء التَّعْبِيرُ بصيغة جمع التَّكْسِيرِ ﴿بُرَّاءَةٌ﴾ الدَّالُّ على الكثرة،
مع أنَّ مَنْ قال هذا القولَ كانوا قَلَّةً؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ مُتَبَرِّئُونَ مِنْهُمْ
وَمِمَّا يَعْبُدُونَ تَبَرُّؤًا عَظِيمًا قاطعًا لِكُلِّ مَوَدَّةٍ، فَجَمَعَ الْكثرةَ لِلدَّلالةِ
على كَثَرَةِ التَّبَرُّؤِ. كما أَنَّ الْكثرةَ وَالْقَلَّةَ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ، فَقَدْ يَكُونُ الَّذِينَ
آمَنُوا مع سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ كَثِيرِينَ مِنْ حَيْثُ الْعَدَدُ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ
مِنْ عَدَدِ الْكُفَّارِ حَتْمًا.

دلالة تعلق ﴿مِنْكُمْ﴾ بلفظ ﴿بُرْءًا﴾:

تعلق الجار والمجرور ﴿مِنْكُمْ﴾ بلفظ ﴿بُرْءًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرْءًا مِنْكُمْ﴾ - والبراءة تكون من الأفعال لا من الذات - للإشعار بتمكين الكفر بالله من القوم الكافرين، حتى صار جزءاً من ذاتهم، كما أن التبرؤ من ذاتهم يلزم منه التبرؤ من أفعالهم كذلك؛ أي: من عبادتهم التي أشركوا فيها آلهتهم مع الله تعالى، والمقصود تبرؤهم من مخالطتهم وملاستهم؛ لأن ذلك يبعث على المؤدة والمحبة لدينهم⁽¹⁾، فالبراءة من القوم باعتبار ما يقارفونه من الباطل والشرك، وكان لذواتهم كي لا تعود أسباب الوصال، فهم قومهم وقرابتهم، فالأحمد للدين البراءة منهم ذاتاً والتزاماً.

دلالة العطف وترتيب المعطوفات في قوله: ﴿مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾:

أفاد العطف في قوله: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ التشريك في تبري إبراهيم والذين آمنوا معه من المشركين ومما يعبدون، والعطف على اعتبار تكرار العامل، والتقدير: إِنَّا برآء منكم وبرآء مما تعبدون من دون الله، وفي ذكر المعطوف إشارة إلى سبب براءتهم منهم، وأنه بسبب إشراكهم بالله تعالى، وإنما قدّم البراءة من قومهم على البراءة مما يعبدون؛ للإشارة إلى تقديم الأصل والأهم؛ بمعنى: أن الأصل في البراءة أن تكون منكم؛ لأن المعبودات لم تُلزمكم بعبادتها، فقدّم في المتعاطفين السبب الأهم الذي هو الأصل.

دلالة الاسم للوصول (ما):

أفاد الاسم الوصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ العموم؛ ليدل على تبريهم من جميع ما يعبدون من دون الله، والمقصود الأصنام التي يعبدونها مع الله تعالى، وقرّر هذا العموم وأكدّه حذف العائد على الاسم الوصول، وهو مفعول الفعل

هَجَرَ الْمُعْتَقِدَاتِ
لَجُوهَرِهَا،
وَهَجَرَ
الْأَشْخَاصَ لِمَا
يَلْزَمُ عَنْهُمْ

الأصل في البراءة
أن تكون من
ذوات المشركين
أيذناً بالتباعد
العنوي

البراءة من
عموم معبودات
المشركين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28 / 144.

﴿تَعْبُدُونَ﴾، وعُبرَ بلفظ (ما) دون (الذين) - أي: دون أن يُقال: (ومن الذين تعبدون) - لأنَّ (ما) أكثرُ عمومًا من (الذين)، كما أنَّ (ما) يُقصدُ بها الفرد والمجموع؛ أي: سواءً أشركتم في فردٍ أم في مجموع، وبقطع النظر عن صفته وحاله فإنَّا برآءٌ منكم.

نكتة التعبير بصيغة المضارع ﴿تَعْبُدُونَ﴾:

جاء بصيغة المضارع في الفعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ لتصوير الحالة واستمرارهم عليها⁽¹⁾. فينطوي اللفظ على ذمهم على عبادتهم المنكرة وعلى استمرارهم عليها، كما أنَّ في التعبير بصيغة المضارع إشارة إلى أنَّهم برآءٌ منهم في كلِّ أوانٍ من أوانة عبادتهم المذمومة.

دلالة ﴿من﴾ في قوله: ﴿من دون الله﴾:

﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ ابتدائية؛ أي: أنَّ البراءة منكم بسبب عبادتكم التي بدأتموها بتعظيم ما هو دون الله تعالى، وكلُّ معبودٍ هو دون الله تعالى في الاستحقاق والحق.

نكتة التعبير بمفردة ﴿دُون﴾:

جاء التعبير بالطرف ﴿دُون﴾ مجرورًا بـ ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ بمعنى: من غير الله؛ للإشعار بأنَّ كلَّ ما سوى الله هو دونَه وأقلُّ من أن يكونَ بمرتبة الألوهية.

فائدة التعبير بقوله: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (ومن آلهتكم):

آثر البيان القرآني التعبير بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ على أن يُقال: (ومن آلهتكم)؛ إيذانًا بعلم القوم بشركهم بالله تعالى في عبادتهم، وعلمهم أنَّهم يعبدون آلهةً من دون الله؛ لأنَّ جملة الصلة تكونُ معلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه عند إحضارها في ذهن المخاطب. وفي التعبير بالصلة

البراءة من
عبادة المشركين
مستمرة في كلِّ
أوانٍ من أوانة
عبادتهم

عقيدة الكافرين
مبدؤها تعظيم
ما هو دون الله

كلُّ معبودٍ من
دون الله مكانته
منحطة في
عقيدة المؤمنين

دين التوحيد
هو دين الإسلام
الحق الذي لم
ينزل سبحانه
سواه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 497/19.

وقيدَها بيانٌ لعلَّةِ براءَتِهِمْ من آلهَتِهِمْ، وإشعارٌ بذمِّهم على عبادَتِهِمْ وقُبْحِ فعلِهِمْ؛ لكيلا يستصعبَ المؤمنون البراءةَ منهم، كما أنَّ في ذكر الصَّلَةِ تقريرًا لكفرِهِمْ الَّذِي يستحقُّون به البراءةَ منهم، وهو الشَّرْكُ بالله تعالى، وعدمُ إفراذه بالعبادةِ الحقَّةِ، والطَّاعةِ المطلقةِ، وهو ما يُؤكِّد أنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام، الَّذِي هو دينُ التَّوْحِيدِ مِنَ لَدُنْ آدَمَ مُرُورًا بإبراهيمَ عليه السلام، إلى أن يرثَ الله الأرضَ وَمَنْ عليها.

علَّةُ فَضْلِ جُمْلَةٍ ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، ودلائلُها:

فُصِلَت جُمْلَةُ ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ عن السَّابِقِ؛ لِأَنَّهَا بَيَانٌ وَتَفْسِيرٌ لِمَعْنَى جُمْلَةٍ ﴿إِنَّا بُرَّءَاؤُا مِنْكُمْ﴾⁽¹⁾، فعَلَّةُ الفصلِ كَمَالُ الاتِّصَالِ؛ لَتَقْيِيدِ الجُمْلَةِ بَيَانِ المَرَادِ مِنْ بَرَاءَتِهِمْ مِنْهُمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَحْصُلُ بِمَجْمُوعِ الجُمْلَتَيْنِ تَمَامُ البَيَانِ والإيضاحِ لموقفِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الكَافِرِينَ.

بلادةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾:

يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ عَنْ إِظْهَارِ الاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ وَالتَّهْكُمِ بِمَعْبُودَاتِهِمْ، وَأَنْ لَا يُقْصَدَ بِهِ الْكُفْرُ الْمَعْرُوفُ، فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: إِنَّا لَا نَعْتَدُ بِشَأْنِكُمْ وَلَا بِشَأْنِ آلِهَتِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ⁽²⁾؛ تَهْكُمًا بِهِمْ وَاسْتِهْزَاءً بِعِبَادَتِهِمْ وَبِمَا يَعْبُدُونَهُ؛ فَإِنَّ مَنْ كَفَرَ بِشَيْءٍ يُلْزَمُ مِنْهُ أَنْ لَا يَعْتَدَ بِهِ وَلَا يَهْتَمَّ لِشَأْنِهِ.

وَالْأَفْضَلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَى الصَّرِيحِ وَالْكِنَايَةِ؛ أَي: كَفَرْنَا بِكُمْ وَبِمَعْبُودَاتِكُمْ، فَلَا نَعْتَدُ بِشَأْنِكُمْ وَبِآلِهَتِكُمْ⁽³⁾.

بيانُ البراءةِ مِنَ
الكافرين هو
إعلانُ الكفرِ بِهِمْ

التَّهْكُمُ
بِالكافرين غيرُ
ممنوعٍ عند
البراءةِ مِنْهُمْ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 50/19، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/143.
(2) الرَّمْخَشَرِي، الكشاف: 4/514، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/202، والشَّهَاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/186.
(3) أَبُو السَّعُود، إرشاد العقل السليم: 8/237.

دلالة تقييد فعل الكفر بقوله: ﴿يَكُفُّمُ﴾:

لسائل أن يسأل عن سر التعبير بقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمُ﴾ دون أن يقول: (كفرنا بدينكم) أو (بمعبوداتكم). وجوابه: أنه لما قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمُ﴾ تضمن الكفر بجميع ما أتوا به وما تلبسوا به؛ فإن الكفر بذواتهم كفر بكل ما يأتي منها؛ ليشمل الكفر بإيمانهم وعبادتهم وبآلهتهم وبأقوالهم وأفعالهم؛ فيكون قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمُ﴾ أبلغ في البراءة من معبوداتهم الباطلة من أن يقال: (كفرنا بدينكم)، كما أنه أوجز في اللفظ.

بلاغة التغليب في ضمير الخطاب:

الضمير في قوله: ﴿يَكُفُّمُ﴾ عائد إلى مجموع المخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله من الأصنام، ففيه تغليب لضمير العاقل ﴿يَكُفُّمُ﴾، والمعنى: كفرنا بجميعكم، ويُفسر الكفر بما يناسب المعطوف والمعطوف عليه؛ أي: جحدنا ما أنتم عليه من الكفر، وأنكرنا عبادتكم، وكفرنا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله⁽¹⁾، فكفرهم بالقوم غير كفرهم بما يعبدوه قومهم، ولما كان القوم مشركين بالله تعالى، حيث يعبدون مع الله آلهة أخرى كان المعنى: كفرنا بكم وآمنّا بالله وحده.

دلالة عطف جملة ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ على جملة ﴿كَفَرْنَا بِكُمُ﴾:

عُطف جملة ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ على جملة ﴿كَفَرْنَا بِكُمُ﴾؛ لتكون من تمام عطف البيان لجملة ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمُ﴾، ومناسبة هذا العطف للدلالة على أنهم صرّحوا لهم بالبغضاء لأجل كفرهم بالله، ولم يُصانِعوهم ويُغضّوا عن كفرهم لاكتساب مودّتهم⁽²⁾. وفي العطف معنى الترقّي في براءة المؤمنين من

أرباب الضلالة
أصل الباطل
ورأس الكفر

البراءة التامة
هي البراءة من
أعداء الله ومن
معبوداتهم

الترقي في البراءة
من الفعل إلى
القول

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 317/23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 145/28.

الكافرين؛ فإنَّهم لم يكتفوا بالكفرِ بهم، بل زادوا في القول؛ فقالوا: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾؛ لبيان شدَّتْهم في دينِ الله وقوَّتْهم فيه.

نكتة تذكير الفعل ﴿وَبَدَا﴾:

جاء الفعل ﴿وَبَدَا﴾ مذكَّراً، والفاعل ﴿الْعَدَاوَةُ﴾ مؤنَّث في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾، وذلك لوجود الفاصل بين الفعل والفاعل، ولكونِ الفاعل مؤنَّثاً مجازياً لا حقيقياً. كما أنَّ في تذكير الفعل إشارةً إلى قوَّة بُدُوِّ العداوة وثباتها⁽¹⁾؛ فإنَّ من شأنِ التذكير القوَّة والصَّلابَة. ويُحتمل أن يكون على المجاز بالحذف على تقدير: وبدا بيننا وبينكم أمرُ العداوة، أو شأنُ العداوة.

بلغة استعمال لفظه الفعل (بدا):

آثر النظم الكريم استعمالَ الفعل (بدا) في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ على أن يقال: (وظهرَ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء) ونحوه؛ لما في مفردة البدو من معنى الظهورِ البينِ الذي يكون في مطلعِ الأمر، بحيث لا يحتاجُ إلى كلفةٍ في المعاينة، فالبدو هو ظهورُ بوادرِ الأمور، ففيه إشعارٌ بأنَّ المؤمنين أظهروا العداوة إظهاراً عظيماً بينهم وبين الكافرين في البدايات، وأنَّها لم تكن مخفيةً ولا متأخرة، كما أنَّ في الفعل (بدا) معنى الفجأة؛ بمعنى: أنَّ الكافرين لم يتوقعوا أن يُظهرَ المؤمنون العداوة والبغضاء لهم مع ضعفِ المؤمنين في العددِ والعُدَّة وقوَّةِ الكافرين.

نكتة التعبير بقوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾:

جاء التعبير عن العلاقة بين المؤمنين والكافرين في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ بالبينية مكرَّرةً، ومقتضاها الجمعُ بين طرفين؛ ليدلَّ التركيبُ على سريانِ العداوة والبغضاء

الإيماء إلى
صلابة براءة
المؤمنين من
الكافرين

جمع الفعل
(بدا) الظهور
السريع
والفاجئ والبين

العلاقة بين
المؤمنين وأعداء
الله العداوة
والبغضاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 497/19.

مشارك بينهما، ولم يقل: (وبدا منا لكم العداوة والبغضاء)؛ ليُفيد أنَّ العلاقة التي بيننا وبينكم هي العداوة والبغضاء؛ فدلَّ الظرف (بين) مُكرِّراً على المباينة بسبب العداوة والبغضاء المشتركة بين المؤمنين والكافرين.

فائدة إسناده البُدْوِي إلى ﴿الْعَدَاوَةُ﴾:

آثر النظم الكريم إسناده حَدَّثِ البُدْوِي إلى ﴿الْعَدَاوَةُ﴾ بجعلها فاعلاً، مع أنَّ المبدِي للعداوة هم المؤمنون، فهي من حيث المعنى مفعولٌ به لا فاعل، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ عداوة الدين لا بدَّ أن تظهر، سواءً أظهرها المؤمنون أم أخفوها مُدَاهِنَةً للكفار. والمعنى: أحدثنا معكم عداوةً مُظْهِرَةً لا مواربةً فيها؛ أي: لَيْسَتْ عداوةً في القلبِ خاصَّةً، بَلْ هِيَ عداوةٌ واضحةٌ مُعْلَنَةٌ بالقول والقلب، والعداوة تقتضي عدمَ مُتَابَعَةِ العدو وعدمَ موالاته، فإنَّ نقيضَ العداوة الولاية⁽¹⁾.

بلاغة عطف (البغضاء) على ﴿الْعَدَاوَةُ﴾:

قرَنَ النظم الكريم بين العداوة والبغضاء في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ونكتة ذلك أنَّ العداوة هي ما يتصلُ بالمعاملة بالسوء والاعتداء، وتكون بالأفعال والأقوال، فتكون ظاهرةً، والبغضاء تكون في القلب، ويُقصدُ بها نفرة النفس، والكراهية؛ لأنَّ البغضاء هي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم⁽²⁾، فتكون باطنةً، وقد تَطَلَّقَ إحداها في مَوْضِعِ الأُخْرَى إذا افْتَرَقَتَا، فَذَكَرَهُمَا مَعًا هُنَا مَقْصُودٌ بِهِ حُصُولُ الْحَالَتَيْنِ فِي أَنْفُسِهِمْ: حَالَةُ الْمُعَامَلَةِ بِالْعَدْوَانِ، وَحَالَةُ النَّفْرَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ؛ أَي: نُسِيءُ مُعَامَلَتَكُمْ وَنُضْمِرُ لَكُمْ الْكَرَاهِيَةَ حَتَّى تَوَظَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ إِشْرَاكِ⁽³⁾. ويلزمُ عن العداوة والبغضاء

عداوة العقيدة
لا يمكن
إخفاؤها

إظهارُ العداوة
ليس لفساد
الصالح
الشخصية، بل
للبغض في الله

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 131.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 499/19.

(3) أبو حفص التفسير، التيسير في التفسير: 384/14، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 145/28.

انتفاء الصُّحْبَةِ لَهُمْ وَعَدَمُ مُحِبَّتِهِمْ. وَمِنْ فَوَائِدِ الْعُطْفِ أَنَّ الْعِدَاوَةَ قَدْ تَكُونُ عَنْ بُغْيٍ وَنَحْوِهِ؛ فَإِذَا زَالَ زَالَتْ أَوْ خَفَّتْ، أَوْ قَدْ تَكُونُ الْعِدَاوَةُ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ فِي الْقَلْبِ؛ لِذَلِكَ أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾؛ لِلإِذَانِ بِالْمُبَايَنَةِ بِالْقُلُوبِ بِالْبَغْضِ الْعَظِيمِ⁽¹⁾.

نَكْتَةُ تَقْدِيمِ ﴿الْعِدَاوَةُ﴾ عَلَى (الْبَغْضَاءِ):

قَدْ ذُكِرَ ﴿الْعِدَاوَةُ﴾ عَلَى (الْبَغْضَاءِ) عَلَى مَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْمُتَعَاظِفِينَ مِنْ تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ، وَلِأَنَّ الْعُطْفَ هُنَا مِنْ بَابِ عُطْفِ الْمُسَبِّبِ عَلَى السَّبَبِ، وَالسَّبَبُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمُسَبَّبِ حُكْمًا، فَالْبَغْضَاءُ مُسَبِّبٌ عَنِ الْعِدَاوَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ إِشْرَاكَهُمْ بِاللَّهِ.

دَلَالَةُ اسْتِعْمَالِ الظَّرْفِ ﴿أَبَدًا﴾:

دَلَّ اسْتِعْمَالُ ظَرْفِ الزَّمَانِ ﴿أَبَدًا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ عَلَى عِنَصِرِ الزَّمَنِ، فَإِظْهَارُ الْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ دَائِمٌ مَا دَامَ كُفْرُهُمْ؛ بِمَعْنَى: ظَهَرَ فِي الْمَاضِي الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَيَسْتَمِرُّ ذَلِكَ فِي الظُّهُورِ وَلَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا إِلَى غَايَةِ إِيْمَانِهِمْ⁽²⁾؛ لِيُفِيدَ ظَرْفُ الزَّمَانِ تَأْيِيدَ إِبْدَاءِ الْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ، مَا دَامَ السَّبَبُ قَائِمًا وَهُوَ كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ، وَالْمَعْنَى: هَذَا دَأْبُنَا مَعَكُمْ لَا نَتْرُكُهُ⁽³⁾.

فَائِدَةُ اسْتِعْمَالِ ﴿حَتَّى﴾ دُونَ (إِلَى) وَدَلَالَتُهَا:

جَاءَ اسْتِعْمَالُ الْحَرْفِ ﴿حَتَّى﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَرْفَ ﴿حَتَّى﴾ يُفِيدُ انْقِضَاءَ الْأَمْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى انْتِهَاءِ الْغَايَةِ بِالْدُخُولِ فِيهَا، أَمَّا (إِلَى) فَيُفِيدُ الْوُصُولَ إِلَى نِهَائِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى تَقْضِي الْأَمْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ التَّعْبِيرُ

الْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي
الْبَرَاءَةَ مِنَ
الْعَدُوِّ وَقَطْعَ
الْعَاقِبَةِ مَعَهُ

بِقَاءُ الْعِدَاوَةِ
وَالْبَغْضَاءِ
مَرَهُونٌ بِبِقَاءِ
الْكُفْرِ

عِدَاوَةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ
تَنْتَهِي بِمَجْرَدِ
إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ
وَحْدَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 499 / 19.

(2) القنوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 50 / 19.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 237 / 8.

بالحرف ﴿حَتَّى﴾ دالاً على تنامي العداوة والبغضاء شيئاً فشيئاً بسبب كفرهم بالله تعالى، وأنها تنتهي بمجرد إيمانهم بالله وحده، كما أفاد التعبير بالحرف ﴿حَتَّى﴾ أن انتهاء العداوة والبغضاء يكون بدخولهم في الإيمان لا بالوقوف على بابه.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التعبير بصيغة المضارع ﴿تُؤْمِنُوا﴾؛ لتضمينها معنى الاستقبال، وإفادتها معنى تجدد الحدث مع ثبوته واستمراره؛ أي: حتى يقع منكم الإيمان في قادمات أيامكم فعلاً قلبياً مظهرًا، متجددًا ثابتًا مستمرًا، لا مجرد معرفة ظنيّة.

نكتة الاحتراس في لفظة ﴿وَحَدَّهُ﴾:

جاء ذكر الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ﴾ مُقَيِّدًا بالحال ﴿وَحَدَّهُ﴾، فصاحب الحال اسمُ الجلالة ﴿بِاللَّهِ﴾، ونكتة ذلك أن مقتضى الإيمان بالله وحده هو الإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر؛ فهي من لوازم الإيمان بالله وحده، ولبيان فساد إيمان من آمن مع إشراكه أحدًا مع الله تعالى في ألوهيته وطاعته وعبوديته؛ فالإيمان بالألوهية غيره سبحانه لا يكون إيمانًا بالله، إذ هو الإشراك في الحقيقة، والمُشْرِكُ لا يكون مُؤْمِنًا⁽¹⁾، فنكتة ذكر ﴿وَحَدَّهُ﴾ بمعنى (مُنْفِرِدًا) حالًا من اسم الجلالة الإيذان بأن هذا القيد من تمام تحقق الإيمان الصحيح السليم.

نوع الاستثناء ودلالته:

يَحْتَمِلُ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أن يكون منقطعًا؛ لأنَّ قول إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ رفقًا بأبيه، وهو يُعَايِرُ التَّبَرُّؤَ منه، فاختلَفَ جنس القولين، فكان الاستثناء

المطلوب بعد
الإيمان الثبات
والاستمرار عليه

مَنْ أَشْرَكَ مَعَ
الهِ أَحَدًا فِي
أُلُوهِيَّتِهِ فَقَدْ
شَرَطَ الْإِيمَانَ

التَّائِي فِي مُطْلَقِ
الْبَرَاءَةِ إِلَّا فِي
اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ
لأَبِيهِ،
فَقَمَّنِي عَنْهُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 519/29.

في معنى الاستدراك⁽¹⁾، ونكتةٌ مجيء جملة الاستثناء هو بيان أن هذه المقولة خاصةٌ بإبراهيمَ لأبيه لم يُشارِكْ فيها الذين آمنوا معه. ويَتَجَهُّ الاستثناء على معانٍ، أظهرها أن يكون على معنى النَّهْي عن الاقتداء بهذه المقولة، والمعنى: لكنَّ قولَ إبراهيم لأبيه: لأستغفرنَّ لك لا تأتسوا به، فلا تستغفروا للمشرِكين؛ فإنَّ استغفارَ إبراهيم كان عن مَوْعِدَةٍ وَعْدَها إيَّاهُ، أو أنَّ ذلك إنَّما وَقَعَ مِنْهُ؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّه قد أسْلَمَ، فلمَّا تبَيَّنَ له أنَّه عدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ⁽²⁾.

وَيَحْتَمِلُ أن يكون مُتَّصِلًا من قوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بتقديرٍ مضافٍ محذوفٍ؛ ليصحَّ الاستثناء؛ أي: قد كانت لكم أسوءُ حسنةً في مقالاتِ إبراهيمَ كُلِّها إِلَّا قَوْلَهُ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾⁽³⁾.

توجيه الاستثناء للوعد بالاستغفار:

أجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءً من الوعد بالاستغفار، بدلالةِ لامِ القَسَمِ ونونِ التَّوكِيدِ الَّتِي تَخْلُصُ الفِعْلَ للاستقبال في ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾؛ فيكونُ المستثنى في التَّأْسِي هو العِدَّةُ بالاستغفار، ويُعْلَمُ مِنْهُ أنَّ استثناءَ الاستغفارِ نَفْسِهِ يكونُ بطريقِ الأولى⁽⁴⁾؛ لِيُفِيدَ الاستثناءُ النَّهْيَ عن التَّأْسِي بِالوَعْدِ بالاستغفار للمشرِكين، فَضْلًا عن الاستغفارِ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا مُسَوِّغَ لَهُ أَصْلًا. والمقصود: لا تَعْدُوهُمْ بالاستغفار، ولا تُجَامِلُوهُمْ، ولا تُبَدِّدُوا لَهُمُ الرَّأْفَةَ كما فعلَ إبراهيمُ ﷺ، فيكونُ النَّهْيُ عن الاستغفارِ نَفْسِهِ أبلغَ وأشدَّ.

الوَعْدُ
بالاستغفارِ
مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَضْلًا
عن الاستغفارِ

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1218، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 51/ 19، وابن عاشور،

التحرير والتنوير: 28/ 145.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 253.

(3) أبو حيان، البحر المحیط: 10/ 155، والذر اللصون، الشمين الحلبي: 10/ 305، والخطيب الشربيني،

السراج المنير: 4/ 263، والقونوي، فتح البيان: 14/ 78.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 237.

دَفْعُ التَّعَارُضِ فِي دَلَالَةِ الاسْتِغْفَارِ بَيْنَ الْآيَةِ وَالسُّنَّةِ:

الاستغفار
في الآية على
حقيقته، وفي
السُّنَّةِ على لَزِمِهِ

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يفيد أن الاستغفار للمشركين لا يُتَأَسَّى به، وهو منهي عنه، وهو محمولٌ على حقيقته. وقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرْبُهُ قَوْمُهُ فَأَدَمُوهُ، وَهُوَ يَمْسُحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)⁽¹⁾. وتوجيه دعاء هذا النبي لقومه بالمغفرة هو أن المراد بها لَزِمُهَا وهو الهداية، بقرينة قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»⁽²⁾. فمعنى (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي): اللَّهُمَّ اهْدِهِم لِلْإِيمَانِ ثُمَّ اغْفِرْ لَهُمْ⁽³⁾، فالاستغفار في الحديث محمولٌ على لَزِمِهِ وهو الهداية، وبه يرتفع التَّعَارُضُ.

بِلَاغَةُ التَّذْيِيلِ:

الاستثناء
للاستغفار،
لا لإظهار عَجَزِ
إبراهيم ﷺ
وتفويضه الأمر
لِلَّهِ تَعَالَى

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تمام قول إبراهيم ﷺ، ولا تدخل الجملة في الاستثناء من التَّأْسِي، بل هي من تمام طلب التَّأْسِي بقول إبراهيم، ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه⁽⁴⁾، والقرينة دالة على أنه خارجٌ من الاستثناء، والعبرة بالقرينة إذا تعدد الاحتمال؛ فمورد الاستثناء نفس الاستغفار، لا قيده الذي هو في نفسه من خصال الخير⁽⁵⁾. وفائدة ذكر جملة الحال في مقام التَّذْيِيلِ إظهاره عَجَزَهُ وتفويضه الأمر لله تعالى، وأن استغفاره قد لا يَقْبَلُهُ اللهُ تَعَالَى؛ فكأنه قال: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ والحال أنني ما أملك لك من الله من شيء وإن استغفرتُ لك ما لم يَغْفِرِ اللهُ لك؛ فما في طاقتي إلا الاستغفار⁽⁶⁾.

(1) صحيح البخاري، (3290).

(2) البيهقي، شعب الإيمان، برقم: (1375).

(3) القنوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 52 / 19.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 205 / 5.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 237 / 8.

(6) القنوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 53 / 19، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 145 / 28.

بلادة الكناية في استعمال مُفردة «أَمْلِكُ»:

آثر النظم الكريم استعمال لفظة «أَمْلِكُ» دون (أقدر)، وهو مستعمل هنا في لازم معناه على الكناية؛ فَإِنَّ مَنْ مَلَكَ شَيْئًا قَدَرَ عليه وتصرَّف فيه، والمعنى: وما أقدرُ لك على فعل شيءٍ، ولا قدرة لي على التصرُّف أمام قدرة الله تعالى، وهو أبلغ من نفي القدرة، لأنَّ نفي الملك يدلُّ على نفي القدرة وزيادة، فأدنى ملك ليس بيده، فكيف القدرة على إنفاذ أمرٍ، فهي منفية من باب أولى.

نَفْيُ الْمَلِكِ يَلْزَمُ
عنه نَفْيُ الْقُدْرَةِ

نكتة ذكر القيد «لَكَ»:

الجارُّ والمجرور «لَكَ» في قوله تعالى: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» لتخصيص نفي ملك إبراهيم عليه السلام في أن يفعل أي شيءٍ لأبيه أمام قدرة الله تعالى، وإنَّما جيء بـ«لَكَ»؛ لأنَّ السِّياق في بيان استغفار إبراهيم لأبيه، ولإفادة أنه إذا لم يكن يملك لأبيه من الله من شيءٍ فلغيره أولى وأظهر.

مَنْ لَمْ يَمْلِكْ
لأبيه شيئاً
فلغيره أولى
وأظهر

دلالة مجيء النكرة في سياق النفي مجرورة بـ«من»:

جاء لفظ «شَيْءٍ» نكرة في سياق النفي في قوله تعالى: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ»؛ ليفيد العموم؛ أي: لا أملك المغفرة التي سألها المذنب ولا غيرها، ودلَّ دخول حرف الجرِّ «من» على «شَيْءٍ» على تأكيد العموم والمبالغة فيه، كما أفاد تكيُّر «شَيْءٍ» التقليل؛ بمعنى: ما أملك لك من الله من شيءٍ وإنَّ كان قليلاً صغيراً.

نفي عموم
القدرة على
النفع ودفع
الأذى

علة فصل جملة الدعاء:

تحتل جملة الدعاء «رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» أن تكون من تمام ما نُقِلَ عن إبراهيم عليه السلام وقومه المؤمنين، فيكون هذا الدعاء من الأسوة الحسنة التي يُفْتَدَى بها، وإنَّما قالوه بعد المجاهرة وقشِرَ العصا؛ التَّجاء إلى الله تعالى في جميع أمورهم،

الالتجاء إلى الله
تعالى في مُدافعة
الكافرين وكفاية
شُرورهم

لا سيَّما في مُدافعةِ الكفرةِ وكفايةِ شرورِهِمْ⁽¹⁾. وعلى هذا التَّوجيهِ يكون الاستثناءُ وما تعلَّقَ به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ كلامًا مُعْتَرِضًا خاصًّا بمقولةِ إبراهيمَ لأبيه، الَّتِي لم يشاركه فيها الَّذِينَ آمَنُوا معه، وبه يكون الكلامُ شديدَ الاتِّصالِ مع قولِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: 6]⁽²⁾.

وتَحْتَمِلُ الجملةُ أن تكون استثناءً بَيَانِيًّا، فكأنَّ قائلاً قال: اتَّخَذَ العدوُّ أوليَاءَ إِنَّمَا هو لدفعِ شرِّهِمْ، فإذا لم نَتَّخِذْ منهم وليًّا بحسبِ الظَّاهرِ فماذا نَفْعُلُ؟ وكيف ندفعُ شرَّهِمْ؟ فأجيب: بأنَّ أفضلَ شيءٍ هو الالتجاءُ إلى الله وتفويضُ الأمرِ إليه، فقال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾⁽³⁾.

وعلى هذا يكون الأمرُ منه تعالى للمؤمنين المخاطبين أن يقولوا هذا الدُّعاء، وبيانهُ على وجهين:

فإمَّا أن يُقالَ: إِنَّهُ أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بأنَّ يقتدوا بإبراهيمَ وَالَّذِينَ معه في مكافحةِ الكفَّارِ ومكاشفتِهِم بالعداوةِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أن يقولوا مثلَ قولِ إبراهيمَ وَالَّذِينَ معه، فقال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتذروا إلى الله بإبدالِ التَّوَكُّلِ على العزيزِ الجَبَّارِ بالتَّوَكُّلِ على الكفَّارِ، وبالإنابةِ إليه في كُلِّ حالٍ، والاستِعاذَةِ من فتنةِ أعداءِ الدِّينِ، والاستغفارِ مِمَّا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنَ المِوَالاةِ⁽⁴⁾.

وإمَّا أن يُقالَ: إِنَّهُ تعالى لما نهاهم أَوَّلًا عن الاقتداءِ بقولِ إبراهيمَ لأبيه أَمَرَهُمْ ثانيًّا بأن يقولوا هذا الدُّعاء: تعليمًا منه ﷺ لهم لما وصَّاهم سبحانه به من قطعِ العَلائقِ بينهم وبين الكفارِ، والاقتداءِ بإبراهيمَ ﷺ وقومِهِ في البراءةِ منهم، والاستِعاذَةِ به من فتنةِ أهلِ الكفرِ، والاستغفارِ مِمَّا فَرَطَ مِنْهُمْ، فيكون الكلامُ على معنى النَّهْيِ عن الأوَّلِ والأمرِ بالثَّاني؛ أي: قولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾⁽⁵⁾.

(1) أبو حفص التَّسْفِي، التَّيسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ: 385/14، وأبو السَّعُود، إرشاد العقل السليم: 237/8، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 145/28.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 899/14، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 146/28.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البضاوي: 54/19.

(4) الطَّبَّي، حاشية على الكشاف: 360/15.

(5) الزمخشري، الكشاف: 514/4، والبضاوي، أنوار التنزيل: 205/5، والالوسي، روح المعاني: 267/14.

غرض التعبير بعنوان الربوبية:

آثر النظم استعمال عنوان الربوبية في جملة الدعاء ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأن مقتضى الربوبية الإعانة والرعاية والعناية، ومن شأن الداعي أن يستعين على عبادته بالربوبية.

إظهار الاستعانة
بالربّ المعين

دلالة الجملة الخبرية على الإنشاء:

جملة ﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ دعائية، فهي خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ إذ القصد من ﴿عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ إنشاء التوكّل عليه وحده والإنابة إليه وحده⁽¹⁾.

بعض الدعاء
يكون خبراً
لفظاً، وهو
إنشاء معنى

غرض تقديم الجار والمجرور:

قدّم الجار والمجرور في الجمل الثلاث في قوله تعالى: ﴿عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ لإفادة القصر والاختصاص؛ تحقيقاً لمعنى توحيد الربوبية ونَبَذَ أي ربّ سواه سبحانه.

قصر التوكّل
والإنابة على الله
وحده

ولما جاء التوكّل في سياق النهي عن موالاة أعداء الله أفاد قصر التوكّل بجعله على ربّ العالمين وحده أنّه تعالى هو الذي يكفيكم في دفع مضرة الكافرين. والتوكّل انفعال قلبي عقلي يتوجّه به الفاعل إلى الله، راجياً منه الإعانة والاعتماد عليه، بقصد طلب الخير ودفع الضرر والخيبة والعوائق.

وقصر الإنابة يفيد أنّه تعالى هو الذي تُنبئون إليه في جميع أموركم، لاسيّما عند الخطأ والمعصية، وأنّه يغفر ذنوبكم إن استغفرتُموه وأنبئتم إليه.

وقصر المصير يفيد أنّه ما دام المصير إليه تعالى وحده فلا ينبغي أن ترهّبوا من عدو الله، ولا تخافوا على أمر من أمور الدنيا. والمصير مصيران: مصير بعد الحياة، ومصير بعد البعث.

(1) القنوني، حاشية على تفسير البضاوي: 54 / 19.

غرض إطلاق الأفعال عن القيود:

أفعال العباد
في المعتقدات
القلبية لا
استثناء لها

جاء الفعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ مطلقاً غير مقيد، فلم يقل: (عليك توكلنا في أمر كذا) ليدل على العموم؛ أي: رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا في جميع أمورنا، ومثله قوله: ﴿وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ﴾؛ أي: إليك أنبأنا في أمورنا كلها، ولم يقل: (إليك نصير)؛ لدلالة الجملة الاسمية ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ على الثبوت، فالمرجع إلى الله تعالى وحده، ويُقصد به المرجع إليه بالموت ويوم القيامة، وهو أمر ثابت لا علاقة له بتجدد الحدث والفعل.

❁ الفروق المعجمية:

العداوة والبغضاء:

العداوة تقتضي
المباعدة وتكون
بالفعل والقول،
والبغضاء تكون
بمناقرة القلب

العداوة هي إرادة السوء والأذى لمن تُعاديه، وتكون العداوة بالقول والفعل، ولما كانت العداوة في الأصل بمعنى البعد أفادت البعد من العدو حساً أو معنى بمعنى مُنافاة الالتئام؛ فالعداوة تقتضي المباحة والخصومة وعدم متابعة العدو. والعداوة تكون بين الأقارب والأبعد، فقد يكون القريب عدو قريبه وإن كان من الأرحام، ونقيض العداوة الولاية والصداقة، والعداوة لا تقتضي تجاوز الحق بخلاف الاعتداء.

أما البغضاء فهي نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، وتكون البغضاء في القلب، ونقيضها المحبة⁽¹⁾، وبعبارة جامعة: "العداوة: كراهية تصدر عن صاحبها؛ معاملة بجفاء، أو قطيعة، أو إضرار، لأن العداوة مشتقة من العدو وهو التجاوز والتباعد؛ فإن مشتقات مادة (ع د و) كلها تحوم حول التفرق وعدم الوئام. وأما البغضاء فهي شدة البغض"⁽²⁾.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 131، والزأغب، المفردات: (عدا).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 148.

الإِنبَاة والرُّجُوع:

الإِنبَاة: رُجُوعٌ مَقِيدٌ بِالرُّجُوعِ إِلَى الطَّاعَةِ؛ فَلَا يُقَالُ لِمَنْ رَجَعَ إِلَى مَعْصِيَةٍ: إِنَّهُ أَنَابَ، وَالْمُنِيبُ اسْمٌ مَدْحٍ كَالْمُؤْمِنِ وَالْمُتَّقِي؛ لِأَنَّهُ يَقْصِدُ الرُّجُوعَ إِلَى الطَّاعَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فَلَانٌ يَنْتَابُ فَلَانًا؛ أَي: يَقْصِدُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

الإِنبَاةُ رُجُوعٌ
إِلَى الطَّاعَةِ،
وَالرُّجُوعُ أَعَمُّ

أَمَّا الرُّجُوعُ فَهُوَ عَامٌّ؛ فَقَدْ يَكُونُ الرُّجُوعُ إِلَى طَاعَةٍ وَقَدْ يَكُونُ إِلَى مَعْصِيَةٍ⁽¹⁾.

كَمَا أَنَّ الإِنبَاةَ تَدُلُّ عَلَى رُجُوعِ الشَّيْءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى⁽²⁾ بِخِلَافِ الرُّجُوعِ. فَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ «أَنْبَتًا» فِيهِ إِشْعَارٌ بِقَصْدِ الرُّجُوعِ إِلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ وَتَجَدُّدِ هَذَا الرُّجُوعِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَعِصِي اللَّهَ تَعَالَى، لَكِنَّ مَعْصِيَتَهُ تَلَحُّقُهَا الإِنبَاةُ.

المَصِيرُ وَالْمُنْتَهَى:

المَصِيرُ: اسْمٌ مَكَانٍ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ؛ فَيُشِيرُ إِلَى تَنْقُلٍ فِي الْحَرَكَةِ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَصِيرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ (صَارَ) الدَّالُّ عَلَى الْإِنْتِقَالِ وَالتَّحَوُّلِ.

المَصِيرُ يَدُلُّ
عَلَى التَّنَقُّلِ
مِنْ حَالٍ إِلَى
حَالٍ، وَالْمُنْتَهَى
يَدُلُّ عَلَى انْتِهَاءِ
الْمَسِيرِ

أَمَّا الْمُنْتَهَى فَأَصْلُهُ: مَكَانُ انْتِهَاءِ السَّيْرِ؛ فَفِيهِ إِذْنٌ بِانْتِهَاءِ السَّيْرِ وَالبُلُوغِ عِنْدَهُ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ تَجَاوُزُهُ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْمَصِيرَ يَشْمَلُ الْمُنْتَهَى وَالْحَالِ، فَإِذَا سُئِلَ عَنِ الْمَصِيرِ فَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنِ انْتِهَاءِ الزَّمَنِ وَحَالِ الَّذِي صَارَ إِلَى مُنْتَهَى أَمْرِهِ، أَمَّا الْمُنْتَهَى فَيُلْحَظُ فِيهِ جَانِبُ الزَّمَنِ.

فَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ فِي بَيَانِ تَحَوُّلِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمِنْ حَيَاةٍ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى اسْتَعْمَلَ الْمَصِيرَ؛ لِيُفِيدَ مَعْنَى الْإِنْتِقَالِ بِحَالٍ مَذْمُومَةٍ أَوْ مَحْمُودَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْمَوْتِ.

(1) أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ، ص: 303.

(2) الرَّاغِبُ، الْفُرُودَاتُ: (نُوب).

وإن كان السَّيَاق في بيان نهاية المسير؛ بمعنى بلوغ النِّهاية اسْتَعْمَلَ المنتهى، فَالتَّعْبِيرُ
 بالمنتهى الدَّالُّ على الآخرة يَأْتِي في سياق التَّعْرِيزِ بالتهديد والوعيد للمكذِّبين بيوم
 المعاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾ [النَّجْم: 42].

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م.ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.

مج. 61، 814 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-645-72-6

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المُنَافِقُونَ الآية 04.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،

الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"